مجلة روافد
للدراسات والأبحاث العلمية في العلوم الاجتماعية والإنسانية
المجلد 06 (عدد خاص) 2022 ص ص 264-282

جهود الإمام ابن باديس الإصلاحية
بين مصادر المتقدمين ومناهج الإصلاح الحديثة

Imam Ibn Badis' reform efforts
Between the sources of applicants and the modern reform approaches

بوزيد طبطوب *
[1] جامعة محمد لمين دباغين سطيف 02 (الجزائر).
البريد الالكتروني المهني: b.tebtoub@univ-setif2.dz

تاريخ الإيداع:	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2022/02/28	2022/03/31	2022/04/16

الملخص: يهدف هذا البحث إلى الكشف عن منهج الإصلاح الذي سلكه الشيخ عبد الحميد بن باديس ومقارنته بمناهج الإصلاح الحديثة على مستوى المرجع والغاية.

باستخدام المنهج التاريخي، والاعتماد على آلية التحليل.

وقد تم التوصل إلى النتائج التالية: اعتمد على طريقة إصلاح السلف مع الانفتاح على المناهج الحديثة انطلاقا من خصوصية الشعب الجزائري وبيئته، ولقد قطفت الأمة ثمار تلك المجهودات بعد حين على مستوى سلوك الفرد والمجتمع.

وفي ضوء هذه النتائج تقترح الدراسة استلهام طريقته في الإصلاح ومنهجه في التربية والسلوك مع مراعاة خصوصة الزمان والمكان وما طرأ على المجتمع من تغيرات.

الكلمات المفتاحية: *الإصلاح ؛ التربية ؛ السلوك ؛ العلم ؛ القرآن.*

Abstract: This research aims to reveal the reform approach taken by Sheikh Abdul Hamid bin Badis and compare it to modern reform approaches at the reference and purpose level.

Using the historical approach, relying on the analysis mechanism,

The following conclusions have been reached: rely on the method of reforming the predecessors while opening up to modern approaches based on the specificity of the

* **المؤلف المرسل**

Algerian people and their environment, and the nation has reaped the fruits of these efforts after a while at the level of the behaviour of the individual and society.

In the light of these findings, the study suggests that its method of reform and its approach to education and behaviour should be inspired, taking into account the time and space and changes that have taken place in society.

Keywords: *reform; education; behavior; science; Qur'an.*

1. مقدمة:

لقد جاء هذا الإمام العَلَمُ في زمن أضعف ما تكون أمة من الأمم، قد جثا الإستعمار الفرنسي على صدرها أعواما عديدة وأزمنة مديدة، وقد أخذ بخِانقها وكتم أنفاسها، ونشر الجهل وأشاع القهر، ففشا الظلم والإستعباد والجور، وأصبحت الجزائر أشبهَ بأرض خصبة طيبة صالحة لكل شيء ولكنها تُركت هَمَلا فقصدتها الوحوشُ الضارية والسباعُ المتوحشة، والحياتُ السامة، فقلبت أمنَها خوفا ورخاءَها غلاءً، وعلمَها جهلا؛ لأنّ الإستعمار غزا الجزائر مثلما يغزو السرطان الجسم السليم، ففي هذه الأرض القاحلة والمناخ الجاف لا تتفجر ينابيع الإلهام ولا تجود القرائح؛ ولمّا كان الحال كذلك أظلنا زمن العلامة الشيخ عبد الحميد ابن باديس، والعلماء مثل الأطباء، بل أكثر من ذلك وحاجة الناس للعلماء والمصلحين أكثر من حاجتهم للأطباء، فإذا كان الأطباء يداوون الأبدان فإنّ العلماء يداون العقولَ والقلوبَ والأممَ، ويبعثون الشعوب من سبات الجهل إلى مجد العلم.

فنهض (رحمه الله) وشمر عن ساعد الجد وأخذ نفسَه ومن معه من العلماء بالحزم واستعان بمجموعة من خيرة العلماء الصالحين والمصلحين، فعمدوا إلى محاربة الآفات التي تحيط بالأمة الجزائرية، وقد علموا يقينا بأنّ الأمم لا تنهض من غفوتها إلا بالعلم، فنشطوا للإصلاح وأشاعوا روحَ الإعتزاز والتفاؤل ونشروا العلم في جميع ربوع الوطن، وهذا هو العمل الصعب؛ لأنّ المظلوم إذا قلت له إنك مظلوم وحقك مهضوم قَبِل منك أكثر من لو قلت له إنك جاهل ينبغي أن تتعلم، وإنك خامل ينبغي لك أن تنفُض عنك غبارَ الكسل وتأخذ الدنيا غِلابا وأن المستعمر ما تسلط عليك إلاّ لأّنك قصّرت في جانب من جوانب الحياة، ولم تأخذ بأسباب الرقي والتطور، ونتيجة لهذه الجهود الإصلاحية المباركة

وغيرها من الأسباب أسهمت في تنشئة جيل قاد ثورة عظيمة للتحرر من قيود الظلم والتكبر والطغيان.

وقد وقع اختيارنا على كتاب مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير من بين كتب ابن باديس عدة عوامل منها أنّ الكتاب يُعد الصورةَ الأخيرةَ التي أودع فيها الرجلُ خبرتَه البيانية والإصلاحية. ومنها لأنه يُعد سجلا حافلا للمجهودات التي بذلها في الإصلاح، ومنها أنه تطبيق عملي لمجمل آرائه الاصلاحية.

ونستطيع القول إنّ الشيخ عبد الحميد ابن باديس هو أحد العلماء العاملين المصلحين الذين استنهضوا أمة كانت تَإِنُّ تحت وطئة الظلم والجهل ثم بعد ذلك أخرجها إلى مصاف الدول المُؤثرة إفريقيا وعربيا وأضحت ضميرَ العالم الحر، ودافعت عن قضاياه العادلة في المحافل الدولية.

2. إنشاء المجلة الإصلاحية الشهاب:

لقد أنشأ الشيخ ابن باديس مجلة إصلاحية موسومة بـــ: الشهاب وقد وجهت الحركة الإصلاحية وقومت مسيرتها وكانت سيفا مُصلَتًا ضد البدع، وظهرت في أحلك ظرف مرّ على الجزائر، وفي أقوى مراحل الاستعمار الغاشم، فلم تَلِنْ له قناةٌ، ولا ضعف له عزم، ولا أصابه خوَر ولا خوف، وكانت بذرة طيبة لشجرة مباركة قطف الشعب الجزائري ثمارها بعد حين، قال (رحمه الله): "وبعد فإنّ مجلة (الشهاب) تفخر بأنها أنشئت للحركة الإصلاحية ورافقتها في جميع مراحلها وأنها هاجمت البدع في معاقلها وواثبت الخرافات في أيام عزها واشتدادها، وساورت الأباطيل على احتفالها واستعدادها لم تهن لها عزيمة في موقف من المواقف التي تخور فيها العزائم وترجف الأفئدة، ولم يكتب لها قلم في ميدان من الميادين التي تنعقد فيها الألسنة وتجبل القرائح" (ابن باديس، 2011، صفحة 337).

3. دور التربية في منهج الشيخ عبد الحميد بن باديس:

لقد كان رجلا يمشي على الأرض وغايته فوق السحاب، سعى إلى ترقية الفرد لِأَنْ يكون عنصرَ بناء في المجتمع الإنساني وأن يكون سلوكه مستقيم، وقد يتوسع ليشمل كل المجتمع بجزئياته المختلفة "على اسم الله نخطو هذه الخطوة نحو الغاية التي نعمل إليها من ترقية المسلم الجزائري في حدود إسلاميته التي هي حدود الكمال الإنساني، وحدود جزائريته التي بها يكون عضوا حيا عاملا في حقل العمران البشري.

وليس ما ندعو إليه ونسير على مبادئه من الإصلاح بالأمر يخص المسلم الجزائري ولا ينتفع به سواه، كلا، فإن صحة العقيدة، واستنارة الفكر، وطهارة النفس، وكمال الخلق، واستقامة العمل- وهذا هو الإصلاح كله- مما يشترك في الانتفاع به جميع المسلمين بل جميع بني الإنسان، وإنما نذكر المسلم الجزائري؛ لأنه هو الذي قدر أن يكون منا ونكون منه كما يكون الجزء من كله والكل من جزئه فحاجته أشد وحقه أوجب، فكان المقصود بالقصد الأول. على أنه لم يذكر لتخصيصه وإنما ذكر ليشعر بنفسه فيعمل لإسلامه وجزائريته فيكون ذا قيمة ومنزلة في الجموع". (ابن باديس، 2011، صفحة 345). فالشيخ يقوم بما تقوم به الأسرة من تربية أولية للفرد، من حيث تهذيب أخلاقه، وتأديب سلوكه، وغرس فيه الخلال الطيبة الكريمة والأخلاق الفاضلة، وتنمية الجانب العقلي والمعرفي والروحي والإيماني، حتى يكون عنصرا صالحا ينفع نفسه وأسرته ومجتمعه ووطنه، وهي نظرة شمولية لتكوين الفرد في المجتمع الجزائري.

إنّ التربية ركن أساسي في فكر الشيخ ومنهجه، فهو يسعى لإعداد الفرد إعدادا صالحا للحياة الاجتماعية السوية المتزنة، ومما تتميز به من حضارة، طبقا لنظام اجتماعي يتوافق مع الخصوصية العربية الإسلامية.

والحضارة العربية الإسلامية التي امتدت من حدود الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا وشملت الأندلس، عاشت إشراقا روحيا وتماسكا اجتماعيا وتطورا علميا،

ورقيا عمرانيا بقيت رسومه شاهدة إلى يوم الناس هذا، وخلّفوا إرثا معرفيا تجاوز ثلاثة ملايين (3000000) مخطوطة، متناثرة في جميع مكتبات العالم، منذ قرنين ونحن نطبع في تلك المخطوطات ومازال كثير منها لم يطبع، فلو جمّعنا تلك المخطوطات لصنعنا منها هرما صغيرا، نفاخر به عجائب الدنيا السبع، فتلك عجائب من حجارة وطين، وهذه من بنات الأفكار والعقول. وهذا جزء من الذي نجا من عبث المغول وجهلهم وحرق الإفرنجة في الأندلس، فالمغول سوّدوا به نهر دجلة شهرا، والإفرنجة سودّوا به سماء قرطبة أياما.

4. أهمية التعليم في الحركة الإصلاحية:

كانت الحضارةُ العربيةُ أكثرَ مدنية من جميع الحضارات التي عرفتها الدنيا، وأحسنها أدبا، وأكثرها قوة، أعظمها تسامحا، وأوفرها قوة، وأرحمها بالخلق، فكم أسست من علوم، وألفت من كتب، وأنشأت من مكتبات، وقد طوّرت الكتابة والترجمة، ووسّعت دائرة الفنون والمعارف، وخلّفت معارف وتجارب ذات قيمة.

حضارة جمعت بين العقل والروح والدين، جمعت بين الفضائل والأخذ بالمكارم والتوسط في كل شيء، اهتمت بعبادة الخالق وتزكية النفوس، ونبذ الخرافات والأساطير، وجمعت بين العقل والنقل، تمسكت بما تملك وانفتحت على غيرها من الأمم بحذر. وأعطت الفرد حريته، والعقل حقه من التدبُّر والتفكر والاختراع، أما الحضارات القديمة والحديثة اقتصرت على العقل والمنطق وأهملت الروح، فخسرت الإنسانَ كقيمة إنسانية واجتماعية، وقد اهتمت الحضارة الإسلامية بالعلم. "ولا أدل على وجود روح الحياة في الأمة وشعورها بنفسها ورغبتها في التقدم من أخذها بأسباب التعليم: التعليم الذي ينشر فيها الحياة ويبعثها على العمل ويسمو بشخصيتها في سلم الرقي الإنساني ويظهر كيانها بين الأمم". (ابن باديس، 2011، صفحة 346).

لقد أسس (رحمه الله) جمعيات، وفتح مكاتب، وأنشأ نوادي؛ كنادي الترقي، وأسس حلقا للعلم في المساجد، واشترى بتلمسان وقسنطينة وميلة دورا للتعليم وتزايد عدد

الوافدين من الطلاب على الجامع الأخضر وعلى جامع الزيتونة وعلى الجهات التي فيها دروس منتظمة؛ لتقوم نهضة إصلاحية خالصة ومباركة.

5. الأهداف التربوية:

لقد نجح الشيخ في تحقيق الأهداف التربية والاجتماعية والإصلاحية التي سطّرها، والتي قطف الشعبُ الجزائري ثمرتَها بعد سنوات قليلة، وبذلك يُعد من أكبر المصلحين في القرن التاسع عشر، ليتفوقَ على جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده المصري؛ لأنه أخرج أمة من غياهب الجهل والأمية التي زرعها استعمارُ حاقد طويل –تجاوز قرنا من الاحتلال- سعى لطمس جميع مقومات الهُوية الوطنية ومحاربة الإسلام واللغة والأسرة والفرد، بينما الأفغاني ومحمد عبده كانت بلدانُهم أقلَ ضَررا من الجزائر. ونعتقد بأنه حقق الهدف الذي حدّده وهو الهدف الإصلاحي، رسمه من وحي بيئته والمحيط الذي يعيش فيه والأحداث التي عايشها، وتأثّر بها تأثرا مباشرا.

6. جوهر الإصلاح ومادته:

لقد حارب الشيخ الشركَ ومظاهرَه والخرافَة وأسبابَها ونشر العلمَ النافع والدينَ الصحيحَ "بقدر ما كان تمسك الأمة بأسباب العلم كان رفضها للجمود والخمود والخرافات والأوضاع الطرقية المُتَحَدِرَةِ للفناء والزوال حتى أصبح القطر الجزائري كله يكاد لا تخلو بيت من بيوته ممن يدعو إلى الإصلاح وينكر الجمود والخرافة ومظاهر الشرك القولي والعملي وأصبحت البدع والضلالات تجد في عامة الناس من يقاومها وينتصر عليها". (ابن باديس، 2011، صفحة 346). وقد انتشر الإصلاح وعمّ التعليم، وكثر أنصار الشيخ ومحبيه، وارتفع وعي المجتمع، ونزل المصلحون من أنصار الشيخ إلى الميدان، وبدأ يلوح في الأفق بصيص الأمل وشعاع الرجاء في غد أفضل يسود فيه العدل والإحسان والألفة والرحمة بين جميع المتساكنين بهذا القطر وإلى التفاهم والتعاون على ما فيه هناء وسعادة الجميع.

7. فضل العلم:

العلم أفضل شيء ضُيعت فيه الأعمار، بل إنّ له لذة أعظم من اللذائذ كلِّها. لا يجهل قدر العلم إلا الجهلاء، فهو نور وشرف ووقار قال عبد الملك بن مروان لبنيه يوما: يا بني تعلمو العلم فإن كنتم سادةً فُقتُم، وإن كنتم وَسَطا سُدتُم، وإن كنتم سُوقَةً عِشْتُم.

وقال الشاعر:

العلم يرفع بيوتا لا عماد لها والجهل يهدم بيوت العزّ والشرف

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كفى بالعلم شرفاً أنه يدعيه من لا يُحسنه ويَفرح إذا نُسِبَ إليه من ليس من أهله، وكفى بالجهل خمولاً، أنه يَتبرأ منه من هو فيه ويَغضب إذا نُسب إليه.

فنظم بعض المحدثين ذلك، فقال:

كفَى شَرَفاً لِلْعِلْمِ دَعْوَاهُ جَاهِلٌ ... وَيَفْرَحُ أَنْ يُدْعَى إِلْيهِ وَيُنْسَبُ

وَيَكْفِي خُمُولاً بِالْجَهالَةِ أَنَّنِي ... أُرَاعُ مَتَى أُنْسَبْ إِلَيْهَا وَأَغْضَبُ

8. الجهاد بالقرآن الكريم:

إنّ رجال الإصلاح من العلماء العاملين طبقوا معاني القرآن الكريم على أرض الواقع، واقتصروا على معانيه السامية وتوجيهاته السامقة في الدعوة والإرشاد والإصلاح، فبدؤوا أولا بتحقيق التوحيد وتنقيته مما علق به، وجعلوه منهجا في الإصلاح فأثمرت دعوتُهم، ونالت قبولا مجتمعيا، وأقبل عليها الناسُ من جميع الأصناف ومن مختلف الطبقات وأحدثت طريقتُهم في الإصلاح تغيرا في العقيدة والسلوك وانتشرت تلك الدعوة الباذخة في الشرق والغرب. فقد اقتصر (رحمه الله) على التفسير ومعاني القرآن في دعوته الإصلاحية الشاملة في الجزائر ابتداء بتحقيق التوحيد ومحاربة الخرفات التي دعمها الاستعمار البغيض وساعد على انتشارها، فمنهج ابن باديس في التربية والسوك منهج متكامل يبدأ بالقرآن وينتهي إليه؛ لأنه عكف على تفسير القرآن إلى أن ختمه في

ثلاث وعشرين سنة مدة التنزيل، فتعلم الناس منه كلَّ شيء؛ لأنه تِبيان لكل شيء. قال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (رحمه الله): "كان للأخ الصديق عبد الحميد بن باديس رحمه الله ذوق خاص في فهم القرآن كأنه حاسة زائدة خص بها. يرفده -بعد الذكاء المشرق، والقريحة الوقادة، والبصيرة النافذة- بيان ناصع، واطلاع واسع، وذرع فسيح في العلوم النفسية والكونية، وباع مديد في **علم الاجتماع**، ورأي سديد في **عوارضه وأمراضه**. يمد ذلك كله شجاعةٌ في الرأي، وشجاعة في القول، لم يرزقهما إلاّ الأفذاذ المعدودون في البشر. وله في القرآن رأي بنى عليه كل أعماله في العلم، والإصلاح، والتربية والتعليم: وهو أنه لا فلاح للمسلمين إلاّ بالرجوع إلى هدايته والاستقامة على طريقته، وهو رأي الهداة المصلحين من قبله. وكان يرى -حين تصدى لتفسير القرآن- أن تدوين التفسير بالكتابة مشغلة عن العمل المقدم؛ لذلك آثر البدء بتفسيره درسا تسمعه الجماهير فتتعجل من الاهتداء به ما يتعجله **المريض المنهك من الدواء**، وما يتعجله **المسافر العجلان من الزاد**. وكان -رحمه الله- يستطيع أن يجمع بين الحسنيين، لولا أنه كان مشغولا مع ذلك **بتعليم جيل**، و**تربية أمة**، و**مكافحة أمية**، ومعالجة **أمراض اجتماعية**، ومصارعة **استعمار يؤيدها**. فاقتصر على تفسير القرآن درسا ينهل منه الصادي، ويتزود منه الرائح والغادي، وعكف عليه إلى أن ختمه في خمس وعشرين سنة.

كان ذلك الأخ الصديق رحمه الله يعلل النفس باتساع الوقت وانفساح الأجل حتى يكتب تفسيرا على طريقته في الدرس. وكان كلما جرتنا شجون الحديث إلى التفسير، يتمنى أن نتعاون على كتابة التفسير، ويغريني بأن الكتابة علي أسهل منها عليه" (ابن باديس، 2011، صفحة 11-12).

وطريقته في التفسير طريقة رائعة تجمع بين العلم والعمل، وتجمع بين الإعتقاد والسلوك وإسقاط معانيه على الحياة، فتفسيره كالندى الذي ينزل على النبات الذابل، أو المزن الذي يهطُل على أرض جدباء جافة فينبت مختلفُ الأزاهير والورود، ويحيي

الأرضَ بعد موتها فتدب في الحياة وتسري في إرجائها الحركية والإبتهاج. لكنه لم يدون تلك الدرر الرائعة واللفتات السلوكية والاجتماعية، وقد تحسر محمد البشير الإبراهيمي على فقدان تلك التفسيرات الجليلة إلا ما دونه ابن باديس في فواتح جريدة الشهاب، وسماها (مجالس التذكير)، فقال رحمه الله: "لم يكتب الصديق أماليه في التفسير، ولم يكتب تلامذته الكثيرون شيئا منها، وضاع على الأمة كنز علم لا يقوم بمال، ولا يعوض بحال، ومات فمات على التفسير ، وماتت طريقة ابن باديس في التفسير" (ابن باديس، 2011، صفحة 11-12). وهذه الطريقة هي نفسها التي اعتمدها المصلحون، ابتداءً بالشيخ ناصر السعدي في نجد، والشيخ محمد رشيد رضا في مصر، والشيخ الطاهر بن عاشور في تونس، والشيخ محمد، والشيخ الشنقيطي في موريتانيا. وقد جاهد ابن باديس الإستعمار الغاشم بالقرآن؛ لأنه استلهم ذلك من قول الله تعالى: ﴿فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: 52]. من هذه الحقيقة الثابتة ما فتئ الجزائريون يرددون في كل مناسبة أو نادي أو محفل بأنّ الإسلام هو الذي أخرجهم من ظلمات الإستعمار وضلالات المحتل الغاشم، وبه قاومت عوامل الفناء والإضمحلال وجعلت آلامها حافزا لأحلامها، وضحت بكل غال ونفيس في سبيل نفض غبار الجهل لمقاومة ظلام الاستعمار والانعتاق من آسار الإنحطاط وقيود الظلم وأغلال التكبر على الخلق والأمم.

والعلامة ابن باديس من كبار المصلحين الذين يشار إليهم بالبنان لا سيما في القرون المتأخرة، وآثاره بقيت خالدة ما بقي الليل والنهار وأعماله الجليلة قائمة على مرّ الزمان إذا ذكرها الجزائريون ترحموا عليه؛ كيف لا؟ وهو من المصلحين الربانيين الذي صنعوا البشر قبل الحجر، وبنوا العقول والقلوب قبل البيوت. ويصدق فيه قول الحطيئة:

أَقِلّوا عَلَيهِم لا أَبا لِأَبيكُمُ مِنَ اللَومِ أَو سُدّوا المَكانَ الَّذي سَدّوا

أُولَئِكَ قَومٌ إِن بَنَوا أَحسَنوا البُنى وَإِن عاهَدوا أَوفَوا وَإِن عَقَدوا شَدّوا

وَإِن كانَتِ النُعمى عَلَيهِم جَزَوا بِها وَإِن أَنعَموا لا كَدَّروها وَلا كَدّوا

9. منهج ابن باديس في الإصلاح:

تناول الرجل في تفسيره سور القرآن الكريم بالترتيب المعهود في المصحف الشريف، فبدأ بالفاتحة وانتهى بالناس، محافظا على ترتيب آيات القرآن.

و"أمّا الخطوات التي اتبعها الإمام في تفسيره، فتتمثل فمايلي:

- تمهيد: يضع القارئ في جو النص القرآني المراد تفسيره.
- المناسبة: وذلك ببيان ارتباط الآيات بما قبلها.
- سبب النزول: لأنه يعيين على فهم الآية أو الآيات.
- الألفاظ أو المفردات، بتفسيرها بأرجح معانيها اللغوية، مما يساعد القارئ على فهم مضمون الآية أو الآيات.
- التراكيب: بتحليلها وحملها على أبلغ أساليبها البيانية، مبرزا خصائص الأسلوب العربي.
- المعنى أو التفسير: بإيضاح المعنى العام للآية أو الآيات، إيضاحا لا يشوبه إيجاز مخلّ ولا إسهاب مملّ.

الأحكام، باستخراج ما في الآية أو الآيات من أحكام وحِكم، وحقائق وقيم مختلفة، عقدية، وتشريعية، وأخلاقية، ونفسية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية، وتاريخية، وكونية، مع استطراد -أحيانا- في الجمع والتحقيق، والغوص والتدقيق، والتأصيل والتفريع والتفصيل، والتعليل والتحليل، والتنبيه والتنويه والتوجيه، وتطريزها بالفوائد العلمية والنكت البلاغية ونحويها"، (ابن باديس، 2011، صفحة 25).

من خلال تتبعنا لمنهجه في كتاب مجالس التذكير عَنَّ لنا وظهر أنّه يقرر حقيقةَ أساسية، يُدَنْدِنُ حولها ويركّزُ على ترسيخها في أذهان الناس وهي أنّ القرآنَ منهجُ حياة للأفراد والمجتمع، وهو نورٌ ونبراس يهتدي به الحَادِي في طريق الفوز والنجاة دنيا

وآخرة، وأنه مكتفي بذاته، وهو دستور الأمة الخالد، كان ومازال وسيظل العاصمَ للأفراد والمجتمعات من الوقوع في براثن الجهل والتخلف.

كما اهتم باللغة العربية، من خلال القرآن الكريم؛ لأنه دستورُها الخالد الذي تدين له العربية في بقائها، وتستمد منه علومها المختلفة، منذ العاصر الجاهلي إلى يوم الناس هذا، فضلا عن كونها لغة جامعة للأمة الجزائرية، تحمل آلامهم وآمالهم، وهي أوسع اللغات لسانا وقد شرفها الله سبحانه وتعالى بأن جعلها وعاءً لكتابه الكريم، وقد وسعت كتاب الله وسنة نبيه وآثار العربية العلمية والأدبية، ولا سبيل لأمتنا بالنهوض اللحاق بركب الأمم المتطورة إلى بها، بل كل الأمم التي قطعت أشواطا كبيرة في مسيرة التطور والرقي العلمي والأدبي والمجتمعي اعتمدت على لغتها الأصلية. وأمتنا في نظر العلامة ابن باديس لا سبيل إلى اللاحق بركب الحضارة وأن تشارك مشاركة أصيلة في بناء دولتها والتحرر من قيود المستعمر الغاشم الذي جثا على صدورنا سنوات عديدة وأزمنة بعيدة، قد أمعن في إذلال لغتنا وذلك بواسائل شتى تارة بالمنع وأخرى بتجريم استعمالها في التعليم والمراسلات، وأخرى بالتضيق على المساجد والزوايا والمدارس القرآنية. ومن منطلق المحافظة على العربية وصهر المجتمع في بوتقة واحدة نجد الشيخ ابن باديس صرف همتَه إلى المحافظة عليها وترقيتها قولا فعلا وعدّها الأساس المتين للرقي الروحي والفكري الذي تقوم عليه الشعب الجزائري والأمة العربية الإسلامية، فاللغة العربية أساس نهضتنا وقوام وحدتنا.

قال (رحمه الله):

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

ومن المعلوم إنّ اللغة ليست غايةً في ذاتها، وإنما هي وسيلةٌ يتوصل بها أفراد المجتمع الواحد لتستقيم علاقاتهم وتنتظم أمورهم، ولتقضى أغراضهم، وتيسر أمور حياتهم، فهي أساس مهم للحياة الإجتماعية، وأساس لتوطيد سبل التعايش بين أفراد

المجتمع الواحد، ولإرضاء غريزة الإجتماع لديه، فهي أداة وصل بين الفرد والآخر وبين الحاضر والماضي. فإذا فقدت اللغة العربية لم نستطيع التواصل مع تراثنا الضخم الذي خلفته الحضارة العربية الإسلامية مدة ثلاثة عشر قرنا. واستعجم علينا اللسان العربي وفقدنا روابط التواصل مع عرب المشرق، وأضحت أمتنا غريبة في هذه الأرض الطيبة المباركة. قال جميل صليبا: "اللغة –إذن- مرآة الشعب ومستودع تراثه، وديوان أدبه، وسجل مطامحه وأحلامه، ومفتاح أفكاره وعواطفه، وهي فوق هذا وذاك رمز كيانه الروحي، وعنوان وحدته وتقدمه، وخزانة عادته وتقاليده"، (صليبا، 1984، ص 120).

وقد حاول ابن باديس أن يجعل من العربية درعًا سميكةً تحتمي بها الأمةُ، وأن يجعل لها في أفئدة الجزائريين منزلةً سامية؛ لأنّ لها في المجتمع فاعليتها المقدسة، وحركيتها النشطة، ودورها القيادي، فحيث تكون العربية يكون الإسلام، وحيث يكون الإسلام يكون الأمن والسلام والرقي والأخلاق الحميدة والسلوكات الطيبة؛ لأنّ العربية ليست للتواصل فقط بل هي لسان أمين لنقل الفكر وتعميق الأخوة وهي بوتقة تنصهرُ فيها كل الثقافاتِ وتتعمق فيها الروابطُ الاجتماعية. ومن ثمةَ كانت العربيةُ في نظر الشيخ عبد الحميد ابن باديس لها عظمتُها الشامخة ورصيدُها الوافر في استنباط الأحكام الشرعية والآداب السلوكية من مصدرها الأول ومنبعها الأصيل وخزانها الثري، ولا مجال للتذوق روائع البيان، وكنوز التراث العربي إلا بالتغلغل في أعماق اللسان العربي، ليتفيأ ظلال الحضارة العربية والإسلامية، وربط الحاضر بالماضي ووصل الخلف بالسلف. وقد جنّد نفسَه وغيرَه من الغيورين على العربية لنشرها في ربوع بلادنا الحبيبة، وتفنن في إتقانها، وطوّعها لتصبح أداةً فاعلةً لخدمة العقيدة والأمة والوطن؛ لأنّ الإستعمارَ الفرنسي راح يشككُ في اللغة العربية ويحاربها في كل ميدان ويفتري عليها الأكاذيبَ، ويرميها بالنقص والعجز عن التعبير عن الحضارة الحديثة ومصطلحاتها، وأوحى إلى أعدائها بأنْ يُشيعوا بأنها لغة صعبة وبالغة التعقيد وعسيرة القواعد، وأنها لغة البداوة، والواقع يشهد بأنّ اللغة

العربية كانت هدفا لضربات الإستعمار الوحشي وهذا ما يؤكده الحاكم الفرنسي في الجزائر: يجب أن نزيل لغة القرآن من وجودهم، ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم حتى ننتصر عليهم. وهكذا نرى بأنّ أعداء الوحدة الإسلامية ومجرمي الإستعمار يعدون العربية (لغة القرآن) خطرا محدقا بمشروعهم الإستعماري، وتهدد مطامعهم العدوانية.

ومن هنا ندرك الأهمية القصوى التي أَوْلَاهَا الإستعمارُ الأوروبي عموما والفرنسي خصوصا لفرض لغته على العالم الإسلامي، والذي تولاه التبشير المسيحي بفتح مدارسه التنصيرية في كل البلاد التي احتلوها ودعمها بالمال والرجال، وأول شيء اعتمدوه هو محاربة العربية واتخاذها هدفا مشروعا لضربه، وجعل الفرنسية هي اللغة السائدة في التعليم كله، ويعاملون اللغة العربية الأصلية لغة السكان كأنها لغة أجنبية.

وقد أدراك الشيخ عبد الحميد ابن باديس أنّ أعداءَ الوطن من المستعمرين يسعون إلى تحقيق بُغيتهم عن طريق إبعاد العربية عن الجزائريين وإقامة حواجز الفاصلة وسدود قائمة بين الجزائريين ودينهم ولغتهم وحضارتهم وإخوانهم العرب والمسلمين، ليسهل عليهم سلخهم وتفتيت شملهم وتفريق كلمتهم، وبذلك تتمزق العلائقُ فيما بينهم وتنقض عرى الإسلام، وتزول تقاليدهم الاجتماعية والدينية، ويزول اللسان المبين والفكر المُسنير.

والعدوان على اللغة عدوانٌ على الدين وقضاء على بقائه وطمس لرسومه ومعالمه، وقد فهم الشيخ أنّ العربية ليست مجدا يتغنى به أهله، إنما هي سياج لحماية عقيدتهم وتخليدا لكتابهم وأمان لوجودهم، ورداءً لشرفهم، وهي لغة حياة وحضارة وفن وهي لغة عالمية لا يمكن أن يحصرها الإستعمار في طقوس العبادة، ومحافل العادات الإجتماعية. وعلى الرغم من مكر أعدائها أناء الليل والنهار، وتخاذل أبنائها فإنها بفضل الله ثمّ بفضل جهود الشيخ عبد الحميد بن باديس فقد ظلت شامخة باقية تطاول الجبال في هذه الأرض الطيبة.

ولعل أحسن ما يصدق هذا قول زكي مبارك: "تحت عنوان نفحة من الجزائر" وصل إلى يدي عدد من مجلة الشهاب، وهو العدد الخاص بالاجتماع السنوي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهو عدد طريف يشتمل على فوائد كثيرة تصور الحياة العلمية في الجزائر ومن أدق ما فيه ما قرأته من إصرار العلماء هناك على إلقاء عظاتهم باللغة الفصيحة، واحتجاجهم بأن البلاغة تلقن عن طريق السماع كما تكتسب بالدرس، ومعنى ذلك أن العامة يكتسبون الذوق الأدبي بفضل الإكثار من سماع الكلام الفصيح، كما يكتسبه المتعلمون بكثرة الاطلاع على الكلام الفصيح. ذلك يقع في الجزائر، والعامية هناك بعيدة بعدا شديدا من اللغة الفصيحة، فليعرف ذلك الواعظون في مصر، وعامية أهل هذه البلاد قريبة كل القرب من الكلام المعرب الفصيح. وفي ذلك العدد من الشهاب قصائد تدل على أن هناك نهضة شعرية منها هذه الأنشودة التي ألقاها الأستاذ أبو اليقظان:

أهزار الروض غرد بنشيد الوطنية
أحمام الأيك غن بحياة العربية
بلبل الدوح تنغم لي بألحان شجية
فوق لبات الغصون أهد للجمع التحية

وهي أنشودة طويلة، ومنها قصيدة الأستاذ الهادي السنوسي في خطاب أعضاء الجمعية:

حياك شعبك إقليما وسكانا يا هيئة قد زكت علما وعرفانا
أدركت من روحه الطهرى حشاشته من بعد ما قيل حين الشعب قد حانا
شعب أضاع كثيرا من مفاخره لولاك أصبح في الأيام نسيانا

وحرص أهل الجزائر على اللغة العربية هو من أظهر ما هم عليه من الشهامة والرجولة والإباء. فإليهم على بعد الدار، أطيب التحيات".(ابن باديس، 2011، صفحة 341-342).

10. العلم قبل العمل والعدل قبل القوة:

العلم هو إدراك الشيء على ما هو عليه في الواقع سواء كان ذلك من المحسوسات أو الغيبيات. والسلوك هو مجموعة الأنماط الحياتية التي يعيشها الفرد مع نفسه، ومع أسرت هومع المجتمع في كافة المجالات.

فالعلم هو أهم عمود في بناء الأمم وتقدمها -قديما وحديثا- أدركنا ذلك من خلال مسيرة الحضارات القديمة والحديثة منذ زمن الإغريق والرومان وعطفا على الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية المعاصرة، فالأمم المتطورة تستثمر في العلم وترصد له الميزانيات الضخمة والوسائل الكفيلة بتحقيق النجاح العلمي، لعلمهم بأنّ العلم هو المخلص لهم من الجهل والرجعية، ويأتي لهم بالعيش الرغيد، وتتسلح الأمة بالوسائل التي تحافظ على استقلالها وتدفع به هجمات الأعداء، وبه تتخلص من الأزمات التي تقع فيها.

والإصلاح بالعلم عند الشيخ عبد الحميد بن باديس لا تقتصر فوائدُه على الآخرة فقط، بل يمتد نفعُه في الدارين، فبه تسود الأمم وتقود ركب الحضارة، ولما أهملت الأمة العلم أصبحت تأكل من أيدي أعدائها وتلبس مما تصنع، واستقر بها المقام في دركات الجهل، فاحتُلت أرضيها وسُلبت ثرواتُها، وقُتل خيرةُ أهلها، وأصبحت تتسول على موائد أعدائها، فتأخر بها ركب الحضارة، وأرسلوا لنا أردأ ما أنتجته عقولهم، أخبث ما وصلوا إليه في الأخلاق والسلوك القيم. فالشيخ لم يبث في الأمة روح الفشل واليأس، وإنما رأى من واجبه تحديد مواطن الداء ومكامن العلة؛ فالطبيب الصادق الناصح يصارح مريضَه ويبدأ بعلاج أصعب الأمراض وأخطرها. قال (رحمه الله): "رأى بعض الناس المدنية الغربية المسيطرة اليوم على الأرض –وهي مدنية مادية في نهجها وغايتها ونتائجها، فالقوة عنها فوق الحق والعدل والرحمة والإحسان- فقالوا: إنّ رجال هذه المدينة هم الصالحون الذين وعدهم الله بإرث الأرض**!**

فيا لله للقرآن**!** وللإنسان**!** من هذا التحريف السخيف**!**

كأن عمارة الأرض هي كل شيء؛ ولو ضلت العقائد، وفسدت الأخلاق، واعوجت الأعمال وساءت الأحوال، وعذبت الإنسانية بالأزمات الخانقة، وروعت بالفتن والحروب المخربة الجارفة، وهددت بأعظم حرب تأتي على الإنسانية من أصلها والمدنية من أساسها.

هذه هي بلايا الإنسانية التي يشكو منها أبناء هذه المدنية المادية التي عمرت الأرض وأفسدت الإنسان، ثم يريد هذا المحرف أن يطبق عليها آية القرآن: كتاب الحق والعدل والرحمة والإحسان، وإصلاح الإنسان ليصلح العمران.

فأما الصالحون، فهو لفظ قرآني كما قدمناه، وقد شرف أهله بإضافتهم إلى الله في قوله {عبادي} فحمله على الصالحين لعمارة الأرض تحريف للكلم عن مواضعه أبشع التحريف وأبطله، فليحذر المؤمن منه ومن مثله من تحريفات المبطلين والمفتونين"، (ابن باديس، 2011، صفحة 28).

11. منهج ابن باديس ومناهج الاصلاح الحديثة:

- إنّ الاصلاح مرتبط بمدى تحقيق الأهداف العظيمة التي سطرها المصلح لإنجاح مهامه. والشيخ عبد الحميد ابن باديس وضع هدفا يتعلق باستنهاض الهمم والعقول وبناء فرد صالح قادرا على بناء مجتمع سليم، وفك قيد الاستعمار وأغلال التخلف التي جثمت على صدره أزيد من مائة عام.
- خدمة الأمة العربية الإسلامية، والمحافظة على الاسلام في هذه الديار الطيبة.
- الفهم الصحيح للعلم والدين ومحاربة الشرك والخرافات المنتشرة، لا ريب أن طول الاستعمار قد أدى إلى تناسي جزء مهم من الدين الصحيح، الذي عاشه في ظل الاستعمار مدة أجيال.

- ولا يكفي التلقين النظري للفهم الصحيح للدين والحياة ، إنْ لم نعط الفهم الصحيح والتطبيق العملي لهما لتتقبله جميع العقول والأفهام، ليس الطلبة فحسب، بل جميع طبقات المجتمع الجزائري.

- التدرج في الإصلاح مع تبسيط المسائل والإخلاص بعيدا عن التعقيد والتقعر والشهرة.

- إخراج الإصلاح من النوادي إلى المساجد في المدن والقرى والمداشر، أي تجاوز الصورة النظرية إلى مجالها التطبيقي؛ لأنّ التطبيق هو المفتاح العملي للفهم الصحيح للدين والحياة.

- العناية بالتربية والسلوك، ويتمثل ذلك في الاهتمام البالغ لاختيار المعلمين والخطباء.

- ترسيخ المعرفة وربطها بنفع الفرد والمجتمع.

- مراعاة خصوصية الزمان والمكان والبيئة الخاصة بالشعب الجزائري ومراعاة ظروف المجتمع الذي يإنُ تحت احتلال غاشم.

- رفع مستوى المطالب برفع مستوى التكوين والتعليم، وهو حتمية للإصلاح الجيد، وخاصة إذا تبوأ المتخرجون مناصب الإمامة والتعليم والإصلاح.

- كل هذه العوامل تُؤتي ثمارها الطيبة ولو بعد حين.

إذا قارنا عمل الشيخ عبد الحميد بن باديس (رحمه الله) بـــ: سلم المستويات المعرفية التي جاء به التربوي الأمريكي (بنجامين بلوم)

1- المعرفة (knowledge)

2- الفهم (comprehnsion)

3- التطبيق (application)

4- التركيب (synthesis)

5- التحليل (analysis)

6- التقوم (evaluation)

نلاحظ بأنّ التجارب التربوية هي اجتهاد بشري، وطفرة معرفية في الصرح العلمي والإصلاحي والتربوي. وأنّ الشيخ قد اعتمد على مجمل هذه المستويات.

وسأحاول شرحها باختنصار:

1- المعرفة: وتتمثل في حفظ القرآن والسنة والأشعار.

2- الفهم: إدراك القواعد الفقية والأصولية والقواعد النحوية واللغوية.

3- التطبيق: القدرة على توظيف المعارف اللغوية والفقهية في الأمر الواقع واسقاطها على الأفراد.

4- التركيب: هو جمع العناصر اللغوية والمعارف الفقية والتاريخية والاصلاحية، وبناء وحدة إصلاحية متكاملة تتفاعل عناصرها لأداء وظيفتها في المجتمع. أي تعليم الملكة الاصلاحية، لتجعله يواجه مصاعب الحياة وأعقد مشكلات المجتمع.

5- التحليل: القدرة على تفكيك الموضوع أو الموقف الواحد إلى أجزائه الصغرى، وهو يثبت المعرفةوينمي الملكة، ويعطي القدرة على التطبيق.

6- التقوم: وتتمثل في المراجعات التي تحدث، وعلى أساسها، يتجنب المعوقات التي تعتريه.

وقد أضاف الشيخ عدة مستويات استلهمها من منهج المصلحين العرب المتقديم من الصحابة والتابعين.

12. خاتمة:

- وأخير وقبل أن أختم بحثي هذا أود أن أشير إلى أنّ الشيخ عبد الحميد بن باديس هو بَانِي نهضتنا العلمية والفكرية، ومؤسس اللبنة الأولى للعلم في الجزائر، وأنه سلك طريق المصلحين الربانيين في تصحيح العقيدة وتقويم السلوك السليم، بما حَبَاُه الله به من

ذكاء وقاد، وفصاحة عجيبة، وعزيمة لا تمل، وقد ربّى جيلين كاملين على الهدي النبوي والسلوك السوي، وهو الذي غرس بذور الوطنية في الأمة الجزائرية، كان (رحمه الله) كالسيف مضاءً، وكالشمس ضياءً، وكالعافية شفاءً، أصلح اللهُ به أمة هلكت أو كادت، وأحيى به بلدا طيبا، كادت معالم شخصيته أن تزول، وأن تطوى صفحات مشرقة من جهاده وآثاره.

- نهج الشيخ نهج المصلحين وسار على دربهم، واهتدى بطريق الله القويم؛ طريق الرسول وصحابته ومن تبعهم بإحسان، واستشهد بشواهدهم، واستدل بأدلتهم، وهذا واضح في جميع ما خطته يداه، ولهج به لسانه، ومن أبرزها مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير.

- إذا قمنا بمقارنة بين منهج ابن باديس ومقياس بلوم للمستويات المعرفية نلاحظ أنّ الشيخ طبقها وزاد عليها عدة مستويات استلهمها من منهج المصلحين المتقدمين.

13. قائمة المراجع:

ابن باديس، عبد الحميد، (2011)، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، (ط 2)، دار الرشيد للكتاب والقرآن الكريم.

طالبي، عمار، (2015)، الإمام عبد الحميد ابن باديس حياته وآثاره، (ط خاصة)، دار المتعلم للنشر والتوزيع.

صليبا، جميل، (1984)، تعريب التعليم بين القائلين به والمعارضين له، مجلة العربي، المجلد (182)، 120.